أسطورة "دجلة" و"الفرات"

عن الأدب التركي

بقلم الأديب محمد نذير الحسامي

« هذه الأسطورة التركية الجميلة تعد من خير ما في الأدب التركي من روائع وطرائف . فهي لا تقل في براعة سياقها ووفرة مفاجآتها الفنية روعة عن أساطير اليونان الأقدمين وملاحمهم الخرافية . وقد آثرنا إفراغها في قالب عربي متين — مع شيء من التصرف يجلو ما يغشاها من غبار الارتباك ويجري مع الواقع المشاهد على عرق واحد — ليطلع قراء العرب وأدباؤهم على هذا اللون الجديد من الأدب القصصي المحور ... »

كان في الزمن القديم ملك عظيم اسمه « آرارات »[١] يبسط سلطانه على الأصقاع الواقعة في جنوب ققفاسيا وقد اتخذ لرأسه عمامة بيضاء تناطح السماء لتكون رمزاً لجلاله المتسامي وجبروته المنيف . فكنت تراه في مجثمه المهيب — وقد امتدت جبته الخضراء إلى سيف البحر[٢] — فتخاله أحد الآلهة برم بملكوته الأعلى ، فنزل إلى الحياة الدنيا واختار هذه البقعة الجميلة — التي شملها بالعظمة والوقار — دون غيرها من بقاع الأرض .

وكانت له بنت اسمها « الفرات » أي السيل الذهبي نسبةً إلى لون شعرها الكثيف المتموج الذي كان يبدو للرائي كأنه خيوط ضوئية نسلت من منافذ الفجر .

وكانت جميلةً غضة كإحدى عرائس النعيم ، وذات جاذبية رائعة يبطل بجانبها مفعول فتنة (فينوس) وينتسخ معها تأثير السحر والساحرين ...

وقد ساعد على تطرية شبابها الباكر ، أنها من لدن طرفت عينيها الحياة لم تعرف غير الدعة وخفض العيش . فقد ربيت في سرير من السحاب ، وعلى فراش من الطحلب الوثير ...

أما صواحبها في غدواتها وروحاتها ، فكن أسراب الغزلان؛ ترتع معهن في المروج وترا كضهن بتلطف وإيناس تحت ظلال أشجار الصنوبر والكرز ، فإذا جنهن الليل استسلمت إلى الرقاد الهنيء على هدهدة البلابل والأطيار ...

ويراها أبوها « آرارات » ربّا بأنداء الشباب مشتاقةً إلى الحياة كالزهرة أول ما تتفتح أكمامها لتباشير الصباح ، يكاد ثدياها البارزان المتحلبان شهوةً ينطقان باللذة التي تكمن فيهما وتملأ أنسجة جسمها الأملود ؛ فيطرق هنيهةً يفكر في شيء ... لا يلبث أن يستدعيها من أجل مكاشفتها به .

فلقد قطع على نفسه من قبل أن يزوج ابنته — متى أدركت — بابن ملك جبل « قاف »[١] .

(١) الجبل الذي ينبع منه الفرات .

(٢) البحر الأسود .

(١) جبل خرافي كان يعتقد الأقدمون أنه من أقدس جبال الدنيا وأكثرها مناعة ...

أما وقد بلغت ابنته السن الموافقة للزواج ، فليباشر إنفاذ رغبته ، وليتقدم بها تمراً جنياً إلى ابن الملك المتملل بوعوده والمنتظر إنجازه .

ويفاتح الأب ابنته بالأمر فتمتعض حين يقع فى أذنها اسم الفتى الخاطب ، وتعرض عن الإصغاء إلى بقية حديث أبيها ممتلة بأنها لا تفكر مطلقاً فى الانفصال عنه إلى الحياة الزوجية . ولا غرو فى هذا النفور ، فهى تحب الفتيان الشجعان وتتغزل بسيرهم ومغامراتهم ، وقد شاهدت أمس ذلك الفتى يهرب أمام خنزير برّى دون أن يتصدّى له بالمهاجمة والمصاولة مع مافى جعبته من نُشاب ...

فكيف ترتبط معه برباط العمر ؟... لا ! . . . إن هـذا لن يتمّ . إن غدها وشكل مصير هذا الغد مما يعنيها هى اختياره ، ولا يعنى غيرها أحداً فى العالم ، حتى ولا أباها « آرارات » الملك المعظم .

وصرفت ذهنها عن الانشغال بهذا العارض التافه . وراحت تقترح على الأقدار أن تواتيها برغبة نفسها وتدلها على الشاب الذى يلابس هواها والذى لم تر له وجوداً قط فى غير خيالها المبدع

وتظل على هذه الحال من هجسها وتمنيها أياماً تحول فيها نضارتها إلى شحوب يطلق نار خديها من أثر الهم والقلق

وفى ذات مساء بينا هى سادرة فى أحلامها وتخيلاتها إذ ينحط على كتفها عصفور يستهم مأتاه عليها . فتناولته بيدها تتفحص ريشه وتعبث بجناحيه ولكنه يبادرها بالكلام على دهش منها وحيرة :

— إن وراء هـذا الجبل يا سيدتى — ويشير بمنقاره إلى الجهة الجنوبية[1] — شابا فى مقتبل حياته شجاعاً لا يتهيب الموت ، فواراً كالنبع ، مصلتاً كالبرق ، يعرق كالنمر من المآزق التى تعرض له ولذلك سموه (دجلة) بمعنى السهم المنطلق

وقد نمى إليه خبرك وشأنك مع أبيك فأخذته رعدة الغضب وأشفق على هذا الجمال المنور أن يتضوّع نشره فى أرض سبخة ليس فيها حاسة تتذوق طيبه أو تعرف قدره ، كما أنك لامست أيضاً من نفسه — دون أن يراك — موضع الارتياح والقبول . فهو مشغوف بذكرك يترصّد السوانح القريبة ليجتمع بك وينقع غلة قلبه الظمآن .

فتطرب (الفرات) لهذا النبأ الحلو ، وتكسو وجهها حمرة مشبوبة لاندرى أهى من الخجل الذى غلب عليها أم هى اندفاع الدم بمعانى الفرح والاطمئنان؟

والواقع أنها أحست فى نفسها ميلاً شديداً نحو (دجلة) وشعوراً غامضاً ينزع بها إلى اجتلاء صورة الفتى الباغت التى أخذت هى تزينهـا له فى خلدها وتخلع عليها ألواناً شتى من الفتنة . ثم لا يلبث هـذا الشعور الملح أن يأخذ شكلا وجدانيًّا عنيفاً فإذا الفتاة عاشقة يتملكها الوجد والهيام ولمّا تتعرف بعد إلى ذلك الحبيب المجهول الذى جن بدوره بها دون أن يبصرها أو يستمع إليها ...

وهكذا تعشق الأذن أحياناً قبل عشق العين !

ويشى السحاب بخبرها إلى (دجلة) فيتنمّر ويتشمر ويزمع المجىء إليها ولو جشمه ذلك ركوب الخطر وتناول النجم خصوصاً بعد ما جدد أمله بها لوعة الذكر ومقاسمتها إياه حرقة الغرام . فيتأهب لوافاتها

ولكن أنى له النفاذ إليها والاحتيال على لقائها وقد عمد أبوها (آرارات) — إذ تمردت عليه — إلى

(١) الناحية التى يخرج منها (دجلة)

طرف خفى من ذيل جبته وهيأ لها فيه مستقراً مسدود الجوانب يحول دون تسرب أى مخلوق إليها حتى ولو كان (دجلة) صاحب الثمرات المشهورة مع الضوارى ، ومُروّع الهوامّ بأنواعها فى المخارم والأحراج ... ؟

ولكن (دجلة) لايأبه لهذه العراقيل إذا نصبت فى سبيله إلى (الفرات) ما دام مدرعاً بالجلد والثبات ومتزوداً برعاية الآلهة وعطفها عليه ... وهى لا تتوانى عن جبر القلوب المنكسرة ورد «الودائع» إلى أهلها

وحينما يبلغ إليها يتضعضع قليلاً إذ يراها محاطة بسياج مصنوع من الحجارة والصخور تعيا الحيل فى اختراقه لتماسكه المحكم

غير أنه لم يعوّد التراجع والاستخذاء إذا صادف صعوبة فى أمر ما يود رياضته . فليقدم إذن على تجربة جديدة فى تقويض جانب هـذا السد القائم أو إيجاد ثلمة فيه على الأقل يتقحم منها على (الفرات) شغل باله ومنى قلبه .

فيتجمع جهده ويتقذف على الصخور المركومة ولكن سرعان ما ينبو عنها كالسيف . وبذلك تخفق محاولاته فى عبورها فيذهب فيلقى بنفسه بين الوهاد والأغوار متضرباً جياشاً كالجدول الزاخر الذى صرف عن وجهته فراح يتعسف الطرق على غير بصيرة ملتطماً بالصخور والأحجار .

ويطول بعدها بكاء (دجلة)، ويمتد أنينه حتى يبلغ السماء، كما أن (الفرات) يستمر حزنها وتلهفها وتنهمل الدموع من عينيها كالسيول لا سيما وقد وقفها على قصة حبيبها المخذول حمل الرياح فى تضاعيفها زفراته وشكواه .

وفى تلك الأثناء يكون رئيس السحرة (دالو) المتتبع لمجرى حوادث العاشقين قد بلغت رأفته بهما حدها النهائى واستنفد حالها صبره عن مد أسباب العون إليهما وتخليصهما من مهابط الشقاء . فيصر على انتشالهما من الحيرة التى وقعا فيها ... ويعمل فكره الثاقب فى التوسل إلى مبتغاه بوسيلة غامضة تخفى على الشياطين ولا يفطن لها الملك الظالم

ولقد تم (لدالو) ما يريد من هدى (دجلة) و(الفرات) إلى وجه حل المعضلة التى تقوم دون تلاقيهما والتى تزداد تعقداً كلما اعتوراها بالمعالجة والتفكيك ــ كما تم له من قبل تنظيم السفارة بينهما بواسطة العصفور المتكلم .

كل ذلك بفضل دهائه البعيد وخبثه البارع .

فإنه ما لبث أن حار هواء تبددت ذراته فى الفراغ وهمس فى أذن كل منهما قائلاً :

— إن الإنسان ربما لا يستطيع أن يتناول بيمينه كل ما تشره إليه نفسه — فى البلد المسلك عليه — دون أن يغلّ تلك اليمين إلى عنقه بإرادات لاتنتسب إلى ميوله واتجاهاته إما خشية الحدود المتواضع على اعتبارها أو اتقاء الألسنة ومنعاً لقوارصها الشداد . فإذا قُدّر له أن يضرب فى مجاهل الأرض وأن ينعتق من القيود التى كانت تجبذه كلما همّ بالانطلاق فإنه — بلا ريب — سيقضى لبانة نفسه بمبادرته ما يشتهى واجتماعه بمن يشاء ويهوى » ، وهنا ينقطع الحديث قليلاً ثم ما يتم أن يطرد تخالطه لهجة يتفجر منها اليقين

— والآن يا ولديّ يجب أن تتفرقا مَلياً وأن تسيرا فى طريقيكما متدابرين لا يلتفت أحدكما إلى إلى صاحبه . فسيأتى يوم موقوت تحظيان فيه بالعناق الطيب والالتئام الدائم ...

عند ذلك يفهم كل من (دجلة) و (الفرات) الغاية ويدركان القصد فيسلكان طريقين غريبين يغاير أحدهما الآخر

ولقد يصطدمان بشتى الصعوبات عند كل مرحلة

من مراحل السير فينفي أملهما باللقاء القريب عنهما التضجر ويلهمهما التنظر ويروّح عن نفسيهما المكدودتين. كانت الأميرة (فرات) تعانى جهداً عظيما فى اجتياز رمال الصحارى، وكانت — برغم مجاهدتها ومغالبتها بما فوق وسعها فى هذه الرحلة الشاقة — تستعلن دلائل الكلال فى زحفها المتدرج البطىء، وكيف تقوى على مواجهة خشونات الحياة ومضانك العيش وهى من هى فى دلالها ورقتها وليانتها وضعف أنوثتها؟

وأما (دجلة) فكان على عكس محبوبته يقطع الأبعاد والسّاوِفَ فى سرعة الشرر الكهربائى وانخطافه، غير آبه للشمس المحتدمة التى تسفع جبينه المشرق وتلوح جماله الزاهر . . . فلو رآه أحد فى قفزه المتلاحق ينهب أديم الصحراء لقال : جِنّىٌّ يركض لينتزع الشمس قبل أن تفوته من أفقها النائى

وفى أحد الأيام يبصر (دجلة) وهو جادٌّ فى انحداره إنسانة تداف إلى ناحيته مجلى وعليها أثر الهزال من وعثاء السفر. فلا يخامره الشك فى أنها هى «هى» فيمضى إليها غافراً لهذه الصدفة المرجوة كل ما لاقاه من نصب وبلاء متناسياً من أجلها كل مجازفة ...

ويرتمى العاشقان بعضهما على بعض فى المكان المطلسم[1] بقوة عجيبة لو وقفت فى سبيلها الأسوار والقلاع لتداعت من أسسها ولطارت أجزاء فى الفضاء

ولقد حق لهما هذا اللقاء بعد ما شرباه بنوم الليل وراحة النهار . فليهنما إذن بعده بوصال العمر وألفة الأبد بعيدين عن رقابة الأب الظالم وجفوة الأرصاد مثنيين فى سرهما وجهرهما بالخير على الساحر (دالو) الذى بمناصرته لهما جمعهما بظفران هذا الظفر الخالد . ليتناسيا الماضى ومساويه بطائفة من القبل يتراشفانها ثماً إلى فم مودعيها أسرار الحب وخوالج القلب . . .

أجل! ليتذوقا هذه النعمة البالغة نعمةَ اللقاء التى حلا بها هنالك ... فى أخصب أماكن الدنيا وأكثرها رغداً وأوفرها نضرة ، فلم تتحقق ولكنها تحققت هنا ... على هذه الرمال اللاهبة التى لا تنبت الورد والرياحين التى تمتد إليها الأيدى فتذويها ثم تدوسها الأقدام ؛ ولكنها تُنبت شيئاً أسمى من ذلك وأقدس. إنها تُنبت الحرية الغالية التى لا يساويها ذهبُ المناجم ، والتى تطهّر الأرواح من أوضار المادة وتجنّح النفوس لتحلّق فى أجواز السعادة الفردوسية ...

إن هذه القفار الماحلة — التى لا عشب يزين ساحاتها ولا ماء يلمع فى جوانبها ولا بلابلَ تغرّد فى أجوائها — هى خيرٌ ألفَ مرة بالحرية التى فيها من الرياض والمروج والبساتين التى لا يتنفس فيها المرء إلا بمقدار ، ولا يكاد يتزحزح من موضعه قليلاً حتى يضغطه كابوس الرّق والاحتكار ...

وفى ليلة من ليالى الصحراء الهادئة يتزوج الاثنان (دجلة) و (الفرات) يباركهما ضوء القمر السابغ الذى يغنيهما فى حفلة زفافهما عن الشموع والمصابيح ، ويستقبلهما صفير الرياح الذى يقوم مقام الدفوف وطنين الأوتار ...

ويسير العروسان جنباً إلى جنب فى طريقهما الذى لا يعرفان مؤدّاه ، لا يكادان يصدقان أن ما هما عليه من المسرّة والطمأنينة إنْ هو إلا فى اليقظة وإن هو إلا الواقع المشهود . ويتبسطان فى الحديث عن حبهما وعن شجون هذا الحب المحفوف بالمخاطر والأشواك . ويوجسان خيفةً على هذه العلاقة المستحكمة بينهما أن تمتد بحرمتها يدُ المقادير أو أن

(١) الموضع الذى يتألف فيه « شط العرب » من تلاقى النهرين ...

يقطع وشائجها تطفل البشر والتفاتهم إلى الكيد والإيذاء .

أما وقد حظيا بالمناق الطيّب (كما تنبأ لهما الساحر دالو) وهما وجلان بعده أن يفرّق شملهما تحرُّشٌ طارئٌ ؛ فليغيبا على نفسيهما إذن لينتقلا إلى جوار الأبرار وشهداء الغرام فى جنات النعيم وليركنا إلى خلود العشرة ودوام الالتئام

وبينا هما غارقان فى هـذه الوساوس والأفكار لا يعلمان إلى أين تسوقهما أقدامهما إذا بهما فجأةً يتنبهان على جرجرة تعلو وتمتد فينظران أمامهما فتقع عيناهما على منبسط مائى فسيح يسمونه « البحر (١) » يلتجُّ بعضه ببعض ، ماله من نهاية إلا أن تكون فيما وراء الأفق . . .

ويرعشان لأول وهلة . ثم يستعيدان الخواطر التى كانت (قبل ثوان) زادهما الذى تبلغا به للوصول إلى هـذا المكان فيثقفان بالحكمة التى تدّرها ويتأكدان من أن الآلهة هى التى تخيرت لهما هذا المصير فجملت تلك الخواطر والهواجس كتوطئةٍ للانبساط إليه فى رضى وقبول . . .

إذن لا بد من النزول عند ما قدر لهما . ولا بد من تقبل أوامر الآلهة وإرادتها ، لأنها هى وحدها الصائبة التى لا يتطرق إليها الزيغ والبطلان .

ومن يدرى لعل فى فنائهما العاجل — وهو فى يوم لا شك آت — ضمان غدهما فى مقاصير السماء

فليرغبا إذن فى هذه النقلة وليباشراها ، ولَنِعم ما يصنعان .

ويتقدم (دجلةُ) و (الفراتُ) متحاذيين إلى خليج (١) البحر ، وبعـد أن يتعانقا عناقهما الأخير مطلقين العنان لأحر البكاء يرميان بنفسيهما فى اللجة التى تنطبق عليهما إلى الأبد ، وهما متلاصقان تماماً كأنهما جسد واحد

وتمضى الأيام ويدور الزمان ، ويعز على الآلهة أن تدرج هذه الحادثة دون أن يظهر فيها أثر العبرة ومجال التقدير ؛ فيخطر لها أن تخلد جهاد ذلك الشهيدين اللذين فوضا أمرهما إليها ، ولم يمتدا عن مشيئتها قط

ومن أحق من المؤمن الصادق بالأجر والثواب فى الحياة الدنيا بَلهَ الأخرى ؟ . . . وتعمد الآلهة فتشق فوق موطئ أقدامهما من لدن خرجا من موطنهما إلى انتهائهما إلى البحر نهرين عظيمين تسمى أحدهما (دجلة) والثانى (الفرات) تيمُّناً باسمى الشهيدين الكريمين . . . فكانت وما زالت تفيض الخيرات والبركات على شواطئهما الخصبة كما أن ما بينهما من البقـاع كان مهد الحضارات الأولى ومنشأ الثروات الضخمة التى هى إلى اليوم مطمح أنظار الفاتحين ومحط رجائهم وأطماعهم

كذلك تجعل الآلهـة من دموعهما الأخيرة المتحجرة فى قعر الخليج لآلئ غاية فى الحسن والجودة ، تذكاراً لهما بين يدى الأجيال المقبلة ؛ تعلقها النساء فى نحورها وتزين بفرائدها وتحرص على إحرازها واقتنائها . . .

وما تزال إلى اليوم تؤم ذلك الخليج لاستخراج أثمن أنواع اللؤلؤ وأكثرها بريقاً ... أما الملك (آرارات) ؛ أما الأب القاسى الذى أوشك أن يتصدع كالبركان من غيظ جوفه وألم نفسه فقد انتقمت منه الآلهة شر انتقام إذ قلبته جبلاً أصمَّ ينعق الخرابُ فوق ربوعه وتنيخ الثلوج على شعافه صيفاً وشتاء . . .

(حمص) محمد نديم الحسامى

---

(١) البحر الأحمر

(١) الخليج الفارسى حيث يصب فيه النهران معا . والذى من قعره تستخرج اللآلئ الفريدة